فتى الفتيان
الفروسية والرفض

الأستاذ الدكتور
فليح كريم خضير الركابي

الشاعر المتنبي من المهيمنات الرئيسة في القصيدة العربية منذ العصر العباسي حتى اليوم وسيبقى لانه يمثل القمة في الشعر العربي باتفاق اراء النقاد وقد حاول الكثير من الشعراء العرب التأثر به والتوحد معه الان الشاعر الكبير محمد مهدى الجواهرى كان القريب جدا منه والمتماهي معه في كل شي وقد حاول استيعاب تجربـته الشخصية ليصبح عنده رمزا دلاليا للتعبير عن قضايا مجتمعه وقد جلب هذا التطابق في الكثير من المواصفات الى أن يعقد بعض الدراسين موازنات بين الشخصيتين [١] على الرغم من اختلاف العصرين فالمتنبي فارس بشهادته وشهادة اعلام عصره وقد برز الى القتال ولاقى مصيره المحتوم أما الجواهـــرى ((في منازلاته الحدية يبقى محركا للفعل المباشر اكثر منه فاعلا))[٢] فهو الذى يؤجج روح الثورة والتمرد عند الشعب الذى حضر في اغلب قصائده فكانت الصورة عنده مجسدة لما يختلج في نفسه وقصيدة (فتى الفتيان) بناء معمارى فخم يؤكد عمق تلك الشخصية التراثية ومدى تأثيرها في الشخصية المعاصرة وقد نتج عن ذلك بناء صورى رائع بهياكل ضخمة فيه نوع من التعقيد يدل على ثقافة واسعة يؤكد ولاول مرة الجهد المعمارى في شعرنا الحديث))[٣] ويبدو أن تطـــابق الشاعرين ويبدو أن تطـــابق الشاعرين في اللغة والافتتاح

الفخم يظهر واضحا في المستهل الذى واجه به الجواهرى شاعره المحتفى به المتنبي قائلا :

تحدى الموت واختزل الزمانا فتى لوّى من الزمن العنانا
فتى خبط الدنـا والناس طرا والى أن يكُو نهما فكانا (٤)

تحدي الموت من الامور المهمة التي تخلد الانسان وتعكس لنا حجم بطولته وشهامته وذلك ماتجسد في شخص المتنبي وهو حالة نادرة وضرب خيالى من الشجاعة والفتوة التي كانت جديرة بان تلوى عنق الزمن وتتدخل الناس عنق الزمن وتتدخل وهذه هي قيمة التحدى الذى استهل الشاعر به رائعته فكانت الصورة طوع يده ا والحقيقةالتراثية كانت طوع يد المتنبي الـذى (خبط الدنى) (ولوى من الزمن العنانا) انه الاصرار الذى رافق المتنبي فكان فارسا في حياته لايعبأ بالموت ٠

ان الجملة الشعريةجسدت لنا صورة انفعالية قائمة على الصراع الدرامي بين المتنبي والزمن والحصيلة خلود المتنبي على صفحاته و فوز الانس على الجن بعبقرية فياضة لقد كانت بداية القصيدة قرع طبول وتحد وانتصار لتكون البـوابة الرئيسيية الى للعبور الى ابداع ذلك الفتى الخـالد، والانتقال من الصورة الانفعالية الى صورة تكريم الشاعر المحتفى به.

أراب الـجن أنسنُ عبقـرىٌ بوادى ((عبقر)) افترش الجنان
تطوف الحور زدن بما تغنى -وهن الفاتنـات- بـه افتـانا

بعد الظفر بالدنيا ظفر المتنبي بالاخرة وقد اسبغ عليه الجواهرى فراشا وثيرا. (افترش الجنـانا)

فكان ثوابه الحور والمشارب وكل ما وعد الله به عبادة الصالحين في الجنة هذه النعم اغدقه الجواهرى ثوابا للمتنبي الخالد نظرا لشجاعته وفـروسيته.

ولكن البؤرة المكانية كانت في وادى ((عبقر)) ذلك المكان الذى يسكنه الجن والشياطين كما تقول الاسطورة وهذا مايبين لنا تلك الثنائية الضمنية في تلك البؤرة التي خلد الشاعر فتاه فيها وأ غدق عليه بنعم الجنة فاللفظة اعطت مفهوما مغايرا لما تتضمنه ان وادى عبقر ((كناية عن عالم سحرى تقطنه مخلوقات عجيبة في خلقها وادراكها مسيطرة على الشعراء والفنانين موحية اليهم بما ينطقون (ويبدعون)(٥) الجواهرى جعله جنة وارفة يسكنها

المتنبي اراد أن يقول ان المتنبي هو سيد الموقف في ذلك المكان وهو الامير الخالد تعويضا عن عدم حصوله على الامارة في الحياة الدنيا .
لقد اضفى الجواهرى على فتاه سربال القوة الخارقة حين استخدم الفعل (اراب) أي جعل الجن في وضع مريب تسودهم الحيرة والشك وبهذا المضمون اعطى الجواهرى المتنبي الهيمنة والفاعلية حتى على الجن فكانت الافعال (تحدى –أراب –تطوف) ذات مداليل مختلفة فالاول يعنى الثورة والزهو والانتصار والثاني التفوق المعرفي والعلمي والثالث الكسب الاخروى فكانت (الحور والصولجان والولائد والقيان والدنان) ومما زاد في جمال الصورة ورقة افعال الكسب الاخروى اتصالها بنون النسوة فكان الكلام عذبا رقيقا على غير عادة الجواهرى لان شعره غالبا ما يتسم بالفخامة أن افعال النص اتسمت بالحركية وكانت الصورة انعكاسا لسلوك سايكولوجي تعبر عن رؤية الجواهرى لفتاه اورؤية نفسه في شخص فتاه فاختزال الزمن يعنى عودة المتنبي بعد اكثر من الف عام وربما تحت اسم محمد مهدى الجواهرى٠
لقد حاول الجواهرى اسطرة الموضوع والخروج عن المعتاد من خلال مواقف غريبة وصور خيالية كانت تجول في ذاكرته اضفاها على المتنبي الراحل الذى اختزل الزمان وعاد ببزة جديدة

ونصِّبْنِ الاله على سرير من الزهرات زينْ بها وزانا

بعد تلك الصورة المزدانة بالحيوية والحركية يأتي دور حور جنة المتنبي ليجعلن منه ((الها) يرفل بكل شي كان يحلم به في الدنيا لقد استثمر الجواهرى تاريخ المتنبي وبحثه عن الامارة طوال حياته ليعوضه عن كل شي مفقود بهذه النونية الرائعة التي جادت بها مخيلته الخلاقة والتي استطاعت ان تبنى جنة واسورا وحورا وصولجان

دما صاغ الحروف مجنّحات رهافا مشرئبات حسانا

صورة حمراء هي صورة خاتمة حياة ذلك العملاق المتنبي عمادها الفعل (صاغ) الذى يحتاج الى دقة متناهية كي يكون العمل رائعا وقد كان الجواهرى كذلك صائغا رائعا من خلال مترا دفاته الايقاعية (مجنحات –

مشرئبات – رهافا –حسانا) الخ لقد كان المتنبي أمير الكلام واللغة طوع بنانه وكذلك حفيده الجواهرى الذى امتلك ناصيتها

أسلت الروح في كلم موات فجلىّ غامضا منها وبانا
وطاوعك العصّي من المعاني وكم غاو الحّ به فخانا

الابداع الفكرى والشعرى والموهبة هما اللذان يخلقان النص الابداعي هذه حقيقة مسلم بها وذلك ماكان في شخص المتنبي بالامس البعيد والجواهرى بالامس القريب فقد طاو عتهما اللغة كثيرا وكانت صورهما خالدة

وسر الخلق ذهنُ عبقرًى اتى حجرا ففجّره بيانا

الصورة بدأت بالاستقرار بعد التحدى والثورة فكانت استعراضية لحقائق رافقت حياة المتنبي وان دلت علىشي فانما تدل على ثقافة الجواهرى التاريخية الواسعة واسيتعابه للاحدات التي رافقت حياة المتنبي وعبقرية الاثنين التي فجرت البنان تفجيرا

واعطتك الرجولة خصلتيها مع النوب : التمرس والمرانا
وكنت كفاء معمعة طحون لانك كنت وحدك معمعانا

من مواصفات شخصية المتنبي الرئيسة الرجولة والفروسية وهذان العنصران جلبا عليه الكثير من المصائب والنوائب بيد أن تمرس الشاعر ومرانه كانا السبيل الى الخلاص والخروج من المحن.

ان حياة المتنبي مليئة بتلك المصائب منذ الطفولة حتى الوفاة بيد أن عبقريته كانت تصّرفها احسن تصريف . لقد جنح الجواهرى الى استخدام الصورة الاستعراضية الهادئة لكشف بعض اسرار تلك الشخصية التراثية الرائعة ، وبعد ذلك الاستعراض يعود الجواهرى الى الصور الثورية لان حياة المتنبي كانت متقلبة بين الاستقرار حينا والفزع والتقل احيانا اخرى

أثاروا خلف رحلك عاويات ضباعا تستفُز الديد بانا
أراعن يطمعون بمْشخر يدقّ برأسه القمم الرعانا
فكنت الحتف يدركهم عبيدا وأربابا اذا استوفى وحانا

لقد كانت الصورة مقارنة بين شيئين الاول قمة الادب والمعرفة وهو المتنبي والثاني الخصوم والحساد الذين شبههم الجواهرى بالعاويات الضباع وهذا نوع من الحيوانات الذميمة الماكرة فضلا عن اسباغ صفة الرعونة والدنائة عليهم والسخرية منهم لانهم لايمكن ان يرتقوا سفوح تلك القمة الشماء التي

اصبحت حتفا لهم لقد عاد الجواهرى مجددا الى الثورية والعنفوان لانهما لايليقان الابالمتنبي وبه وكانت المستويات الشعرية في قصيدة الجواهرى متعاضدة متضافرة في بنائها الفني فالمستوى الايقاعي كان رائعا متقابلا أو متناظرا لانه خلق أجواء مؤثرة في نفوس جماعة المتلقين فضلا عن أن المستوى التركيبي كسر أنظمة اللغة في اكثر من موضوع تقديما أو تأخيرا أو اعتراضا مما اعطى النص قوة ايحائية تخدم بناء الصورة التي جاءت ثمرة التكافىء بين الحقيقة والمجاز فكانت الشعرية في دلالة الالفاظ أي شعرية المعنى وهذه من أعمدة النص المهمة التي بني عليها.

كفة المتنبي راجحة منذ ولادته وستبقى يتحدث عنها التأريخ لانه ملأ الدنيا وشغل الناس لقد اعطت عناصر الحسد والعداء والكيد قوة اضافية للمتنبي وكانت حافزا نحو الشموخ والتألق الابداعي وشخصية المتنبي بؤرة الاحداث في قصيدة الجواهرى فمنه ينطلق الشد والتوتر واليه يعود وهو المكون الرئيس لجميع الصور التي بثها الجواهرى في ثنايا ادبه الرفيـع لان شخصية المتنبي تمثل قضية خطيرة فهي من اكثر الشخصيات المحملة بأبعاد ودلالات سياسية[٦] فضلا عن كونها قضية عقيدية كانت تبحث عن اقامة الدولة او الامارة التي تخضع لتوجهاته العقيدية المعروفة بيد ان رياح المتنبي هبت بما لا تشتهي سفنه فكان هدفا للسلطة في بغداد التي نصبت له الكمائن وتخلصت منه مقتولا قرب النعمانية على الرغم من ورود رويات عديدة في ذلك الامر ، واختفت معه اخبار كثيرة اصبحت فيما بعد الغازا يحللها النقاد كما يشتهون وبقـــي الشموخ يخلده التأريخ :

وقد غصنا فلا الاعماق منّا ولانسمٌ يهبّ على ذارنا
وقد شمخت ملاحينا علينا وقد أكلت أبا طحنا ربانا

صورة رائعة في نقل واقع الشاعرين بأسلوب الكناية ((عن اختلال المقايس حتى صار العالي سافلا والسافل عاليا))[٧] فالحيف والتدهور السياسي والاجتماعي هما الرابط الوثيق بين عصرى الشاعرين ، و أن معاناة الجواهرى اكبر فيما بعد لانه واجه انظمة قاسية جعلته مشردا حتى وفاته ، وكانت امته ممزقة ضائعة ضعيفة

مضت حقبٌ وهنّ -كما تراها- فقاقيعُ . ونحن كما ترانـا
تمزّقنـا دويـلات تـلاقت بها الرايات ضمّا واحتضانا

وتفخر أنها ازدادت عدادا وتعلم أنها ازدادت هوانا

حال الامة العربية الممزق جسده الشاعر بدقة فكان انحطاطا سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وضياعا ادى الى تفشي فكرة الاحباط عند أبناء الامة.

ان واقع الجواهرى يشبه تماما واقع المتنبي الذى كانت تحكمه الدويلات والامارات الضعيفة وما دويلات اليوم الاامتداد لدويلات الامس فعلى الرغم من المساحة الزمنية بين العصرين الاانها بحسب وجهة نظر الجواهرى كانت فقاقيع عمرها قصير جدا وما اشبه اليوم بالبارحة. لقد تنقل الشاعر بين الازمنة في قصيدته فكانت ماضوية تتحدث عن واقع مرّ ثم مضارعة تتحدث عن واقع الحال المتردى والمستقبل الذى يراه الجواهرى مظلما وهو انعكاس الماضي من دون تغيير فكانت الصورة سكونية بائسة او متراجعة احيانا أما افعال الامر فصيحات انسان يائس اضناه واقع الحال واثار في نفسه القنو ط من تداعيات الماضي وان التغيير نحو الاحسن امر ميئوس منه بيد أن الامل كما يراه الجواهرى معقود على المتنبي الذى سيوقظ الضمائر والنفوس من عفوتها.

حلفت أبـا المحسدّ بالمثنى من الجبروت و الغضب المعانى
بانك موقد الجمـرات فينـا وأن كسيت – على رغم – دخانا
وانك سوف تبعث من جديد تنفض مـاتلبـد مـن كـرانـا

المتنبي معادل موضوعي للجواهرى الذى يثير نخوة الشعب ويدعو الى الثورة والتحرر واللحاق بركب الشعوب المتطورة فانبعاث الشخصية التراثية يقابلها الشاعر مع نفسه ان المتنبي كان يسرى في عروق الجواهرى لـذا توحد معه في اكثر من موقف. وان أبا المحسد وابا الغرات شخصيتان تسيران في خط واحد وتتساويان في كل شئ والى جانب الصورة كانت الاستخدمات الاسلوبية الواعية في بناء الجملة الشعرية توقظ مشاعر المتلقي من خلال المتضادات التي اصبحت الصورة من خلالها اكثر اشراقا وتاثيرا وكانت الذاتية والاعتزاز بعراقية الشاعرين من أعمدة النص الجواهرى هذا حين يقول :

فيا ابن الرافدين ، ونعم فخرُ بأن فتى بنى الدنيا فتانا
ونو ّلنـا ندالك نعشْ عليـه فأن جداك باق لاجدانا

تحولات الاسلوبب واضحة من الغائب الى المتكلم على وفق السياق الشعرى الذى له الهيمنة على مجريات احداث القصيدة وبحسب متطلباتها.

نونية الجواهرى هذه من بحر الوافر بايقاع راقص على غرار نونية المتنبي ((في شعب بوان)) على الرغم من اختلاف الموضوع والعصر وقد كان للالفاظ

على اختلاف مستوياتها ايقاع متجانس لانها تمثل ((مركزا موسيقيا في البيت يقابله مركز موسيقي اخر يضيفيان على البيت تنغيما داخليا خاصا))[٨] * فضلا عن ان حرف الروى (النون) صوت يعبر عن الحزن والانين وكانت الف الاطلاق مخرجا لتفريغ تللك الشحنات العاطفية المكبوتة في نفس الشاعر لان حرف النون اذا ((لفظ مخففا مرققا أوحى بالاناقة والرقة والاستكانة)) واذا لفظ مشددأ بعض الشى أوحى بالانبثاق والخروج من الاشياء)))[٩] فكانت القصيدة ((صورة حنين واطمئنان الى النفس والصميم وصورة التوقد والجمع والاستقرار فالقافية النونية كما يبدو قد أباحت بحقيقية مشاعر الجواهرى مع المتنبي واعطت دلالة التوحد معه))[١٠]

ان الالفاظ الموقعة ودلالاتها كشفت عن عمق شخصية المتنبي وتعلق الجواهرى به لذا كانت تلك الفتوة له منهجا في الرفض والتحدى للانظمة الدكتاتورية المجحفة فعاش حياته رافضا لها حتى تغمده الله برحمته غريبا

وختاما لقد رأى الجواهرى نفسه في هذه القصيدة فهو المبدع الذى بلغ الذروة وهو الرافض المتحدى المختزل للزمن والذى سيبقى مختزلا له على مر العصور وسيكون حاضرا مع الاجيال اللاحقة كحضور المتنبي.

لقد كان الجواهرى سيزفيا يضحي كي يهدى الاخرين طعم الحرية وكان محركا للجماهير في انتفاضاتها ضد المعتدى وسيبقى ادبه رافضا لكل معاني الظلم والطغيان مؤججا لمشاعر الناس وداعيا للثورة.

الهوامش والمصادر

١- ينظر الفن والحكم والفعل جبر ا ابراهيم جبرا دار الحرية للطباعة -١٩٨٦ ص ٦٧ .

٢- محمد مهدى الجواهرى (دراسات نقدية) أعدها فريق من الكتاب العراقيين اشرف على اصدارها هادى العلوى مطبعة النعمان النجف الاشرف ص٦٧.

٣- ملامح العصر –محي الدين اسماعيل منشورات دار المكتبة العصرية بيروت ١٩٦٧ ٠ ص ٢٧.

٤- ديوان الجواهرى مطبعة دار الحرية بغداد ١٠١/٧ .

٥- المعجم الادبي جبور عبد النور دار العلم للملايين ط١ ١٩٩٧ .
٦- ينظر استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي د. علي عشرى زايد دار الفكر العربي القاهرة ١٩٩٧ ص ١٣٨ .
٧- الديوان ١٠٨/٧ (هامش)
٨-تطور الشعر العربي الحديث (اتجاهات الرؤيا وجمال النيسيج) د.علي عباس علوان دار الشؤون الثقافية العامة بغداد.
٩- خصائص الحروف العربية ومعانيها حسن عباس منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق ١٩٩٨ ص١٦٠.
١٠- الرموز التراثية في شعر الجواهرى شذا حاتم وحيد رسالة ماجستير – كلية الاداب –جامعة بغداد ٢٠٠٥ ص١٢٢.